قالت العرب

الأولى آه والتانية آه والتالتة آه / الأولى عيرونى
إن أنا فلاح / والتانية أزرع وأقلع اللى نام وارتاح /
والتالتة آه للى أحبه شط منى وراح

الشهداء

العدد 330 – السنة الثانية عشرة- الأحد 30 يوليو 2023 م- 12 محرّم 1445 هـ

أثناء بحثى عن مسلسل جديد لأتابعه على منصة نتفلكس، لاحظت فى العرض الجديد مسلسلا بعنوان فوضى لممثلين عرب لم أرهم من قبل، تدور أحداثه داخل الأراضى الفلسطينية المحتلة باللغة العربية.

شدنى التصوير فى شوارع المدن الفلسطينية التى أراها للمرة الأولى بعد أن حلمت بزيارتها طوال حياتي، حتى حين كانت غزة تحت الإدارة المصرية وكانت مدرستى ترتب رحلة بالقطار كل عام لم أستطع الاشتراك بها لصغر سني، وكان طلاب المرحلة الثانوية يذهبون ويعودون بكثير من القصص حول زيارة فلسطين.

كنت أسمع دعاء جدتى على أمريكا وإسرائيل، لأنها لا تستطيع بعد أن حجت أربع عشرة مرة أن تقدس بسبب احتلال فلسطين، وكانت تعتقد أنها ملزمة بهذا كى يكتمل أداء فريضتها ثم تعود للدعاء على أمريكا وإسرائيل لأنهما احتلا قناة السويس ومنعاها من السفر بالباخرة التى تحبها بدلا من الطائرة التى تشبه الحدأة.

أتخيل القدس التى تكمل طقوس حج جدتى ويقتلنى بكاؤها عليها. ولأننا قاطعنا السفر طالما الأرض محتلة ولا يستطيع الفلسطينى العودة إلى وطنه، ظل حلم زيارتها يراودنى رغم الدعوات العديدة التى وجهت إليّ من اتحاد كتاب فلسطين أو من وزراء الثقافة الفلسطينيين بالتتابع، إلا أن موقفى ظل كما هو حتى عندما أقيم مؤتمر للرواية وذهب العديد من الكتاب العرب لم أستطع كسر هذا الحظر. لهذا فإن مسلسلا تدور أحداثه داخل الأرض الفلسطينية كان مفاجأة سارة جدا، جعلتنى لا أنتبه لصناع العمل خاصة، وأن معظم الأبطال كانوا عربًا وهناك طبعا الإسرائيليون على الجانب الرسمى والشعبي.

المشاهد المسمومة فى مسلسل فوضى:

«عرب أشرار» بإمكاننا قتلهم بضمير مستريح «كما نفعل بالدمى فى ألع

فى البداية كنت أتصور أن الفوضى هى ما يحدث فى الشارع بين الفريقين أو الفرق كما حاول المسلسل أن يصور المجتمع لكنى اكتشفت أن فوضى هى شفرة بين أفراد وحدة المستعربين تشير إلى أن العملية تخرج عن مسارها.

حاولت فى البداية أن أفهم هدف المسلسل وإلى أى جانب ينحاز، خاصة أن العمل يعتمد على صراع وحدة سرية للمخابرات الإسرائيلية مع المقاومة الفلسطينية، ومع تتابع الحلقات التى حركت الأحداث بصورة مذهلة لى داخل نابلس والقدس ورام الله وخان يونس وطولكرم وغزة ورفح ثم بيروت وبروكسل، وأخذنى التجول بين المخيمات التى أسمع عنها والشوارع والصحراء والمزارع والأسواق، وأنسانى الحذر فتركت نفسى عامدة متعمدة للمتابعة اليومية لأكثر من حلقة.

فى الحلقة الأولى اختطفت الوحدة السرية رجلا استجوبه الكابتن أيوب وهو يعرض عليه صورة ابنته التى تحتاج إلى نقل كلى قائلا: فى مجتمعنا كانت ستتعالج فى أكبر المستشفيات فى مجتمعكم يهتمون بأولاد السلطة فحسب.

كان رجال المخابرات يريدون معرفة معلومات عمن يخطط لعملية تهريب للغاز من خلال العقبة وبعد استخدام كل الضغوط اعترف الرجل بأن المنفذ هو أبو أحمد توفيق حامد المعروف ب «الفهد» لكنهم أنكروا فقد قتلوا الفهد من قبل، وبهذه الطريقة وصلت المعلومات إلى المخابرات الإسرائيلية أنه ما زال على قيد الحياة، ومن ثم وضعوا خطتهم على أساس الإمساك به فى حفل عرس أخيه بشير. قالوا إن أبو أحمد قتل ١١٦ إسرائيليا فجرهم بنفسه منهم أطفال ونساء ورجال وجنود وظهرت الصور المقابلة صورة الفهد عند الفلسطينيين باعتباره بطلا، والصورة الأخرى له باعتباره مجرما وإرهابيا.

يعود الضابط المتقاعد «دورون كابالو» إلى الخدمة بطلب من مديره السابق» أيوب» بعد اكتشافه أن «الفهد» الذى كان يظنّ أنه قتله، ما زال حيا وأنه ما زال مسؤولا عن عشرات الهجمات الانتحارية التى تؤدى إلى مقتل الإسرائيليين. وتضع وحدة المستعربين خطة لدخول أفرادها إلى العرس متنكرين تحت مظلة محل الحلويات الذى يقدم الطعام للقبض على الفهد حال وصوله. ومع الإثارة وإمكانات كشفهم وانهيار الخطة نرى التنقل بين أحداث العرس والإقتحام ونرى أبو خليل أحد أفراد الأسرة القادم من عمان قائلا: ما زلنا قادرين على أن نتزوج وننجب ونؤسس عائلات ويترحم على الشهيد «الفهد» حتى ينكشف أمر رجال المخابرات وتنطلق النيران مخترقة صدر العريس وعدد من المدعوين.

بداية قوية تشد الانتباه على كل المستويات وتؤثر على مشاعر المشاهد وهو ينتظر معرفة رد فعل العروس بعد أن يقتل زوجها. وبعد فشل القبض على «الفهد» الذى يستشعر الخطر فيهرب، تدور المناقشات حامية بين أفراد الأسرة حول رغبة العروس آمال فى الانتقام لمقتل عريسها والطريقة التى يتم بها هذا الانتقام من ناحية، ورغبة أبو خليل فى التعامل مع الأمر بالنظر إلى المستقبل وإلى دورها كفلسطينية فى استمرار العائلات والبقاء على الأرض وإنجاب الأطفال.

و نرى تداعيات فشل العملية عند وحدة المستعربين ومشاعر الثورة والعنف داخل عائلاتهم، والثمن المدفوع عند الطرفين ولا أحد يسأل عن المسؤول أو عن الأسباب التى أدت إلى هذا العنف.

واستعرضت الحلقات حياة المواطن العربى داخل الأزقة والحارات والحوانيت والأسواق والبيوت الضيقة التى يستمع فيها الجميع لأسرار الجميع وفى وسائل المواصلات والشوارع، وكذلك حياة المواطن اليهودى فى المستعمرات والمدن الكبيرة والبارات والضيعات والرفاهية التى يعيشها فى بيوت واسعة مريحة ذات حدائق وأشجار، على عكس المواطن العربى الذى يعيش ضيق الحال فى ظروف صحية وبيئية ومادية بائسة وينتظر المساعدات من أبنائه فى الخارج حتى يستطيع أن يحيا على حد الكفاف.

خوف واستنفار دائمين

كما عكست حالة الخوف والاستنفار الدائم عند العرب من هجمات وحدات المستعربين، أو المخابرات، أو الجيش، أو الشرطة المفاجئة على بيوتهم وأراضيهم للتفتيش عن أفراد المقاومة الفلسطينية، والتى تؤدى إلى قتل العديد من الناس الذين يتصادف مرورهم فى المكان وأيضا خطف الأطفال والأهالى للضغط على الإرهابيين – كما تسميهم – لتسليم أنفسهم.

وفى الجهة المقابلة يعيش الإسرائيليون فى أمان، إلا من يعملون فى مثل هذه الوحدات المسلحة، كما عكست الحلقات الترتيبات الأمنية المدرب عليها يهود المستوطنات عند سماع صفارة إنذار الاختراق، وكيف يتحركون بسرعة كأنهم يعيشون فى معسكر مؤقت يستطيعون نقله فى أى وقت، وسواء أكانت هذه المشاهد مقصودة لإرهاب المواطنين الفلسطينيين وبث اليأس فى نفوسهم أم لإظهار أنهم قادرين على حماية أنفسهم مهما بلغت قدرات المقاومة وبث الطمأنينة فى نفوس اليهود فى المستعمرات، فإن النتيجة عكست الحياة القلقة بسردها لوقائع حقيقية لما يعيشه الصهاينة مهما طال زمن استيطانهم للأرض المحتلة.

بعد أكثر من عشر حلقات لم أستطع إدراك إلى أين يتجه المسلسل، كلما توصلت إلى نتيجة جاء مشهد لينسف توقعاتى ثم كتبت بعض الملاحظات:

أولا: ضخامة الإنتاج والتصوير الخارجى فى كل الأراضى الفلسطينية؛ فى الأزقة والشوارع والبيوت والضيعات والمدن الكبيرة والمنازل الفاخرة والفقيرة الحقيقية.

ثانيا: ممثلون محترفون على أعلى مستوى من الكفاءة الفنية سواء من يمثل الجانب الفلسطينى أو الجانب الإسرائيلي.

ثالثا: تصوير مشاعر وآراء كل جهة بشكل احترافى حتى أنى ارتبكت أمام انحياز المسلسل، فراجعت الأسماء من مؤلف ومخرج وغيره فوجدتها أسماء يهودية مما زاد أكثر من حيرتي. العجيب أنى لم أبحث فى جوجل عن هذه الأسماء لأعرف معلومات كافية عنها ربما أردت خداع نفسى لكى أواصل متابعة ما يجرى على أرض فلسطين من الداخل.

رابعًا: قدم المسلسل تنوعات الفلسطينيين على مختلف فصائلهم بين الفلسطينى غير المنتمى لأى مقاومة أو أعضاء حركات المقاومة.

خامسًا: عكس المسلسل الاختلاف والتنوع فى المشاعر داخل الأسرة الفلسطينية وأيضا داخل الأسرة اليهودية ونقل صورة الصراع الحقيقى داخل هذه الأسر فى الانتماءات السياسية وتنوعها وتضادها أيضا وموقفها حيال الآخر، وحين بدأت أشك أن الغرض هو استدراج المشاهد العربى خاصة أن الحوار يدور باللغة العربية باللهجة الفلسطينية إلا إذا تحدث اليهود داخل بيوتهم بالعبرية فتكون هناك ترجمة عربية، لم أتوقف عن المشاهدة لأن ما قدمه المسلسل يفوق خيالى حتى ولو صنع بمهارة إسرائيلية لكى يدس السم فى العسل ويوصل ما يريد أن يقوله للعالم العربى بدليل أن الترجمة الموجودة عربية فى المشاهد غير العربية فحسب، وسوف أبحث عن نسخة أخرى لأعرف إن كانت هناك نسخًا بلغات أخرى سيختلف الأمر لأن الهدف يكون واضحا ببساطة؛ أنه موجه إلينا. وقد حدث لم أجد غير نسختين واحدة بالعربية والثانية بالعبرية.

ثنائية المشاعر والاحتراف المهني

أعذرونى لأنى سأخلط بين مشاعرى وأحترافى المهنى لأنها ليست قضية عادية، بل هى مأساة حياتنا وسأعترف أن ما عرفته من هذا العمل: "فوضى" يفوق بكثير ما كنت أعرفه مما يعانيه المواطن الفلسطينى داخل بلده، حتى لو لم يكن هذا هو غرض المسلسل. صحيح أنى أتابع كل يوم ما يجرى على الأراضى الفلسطينية، لكن أزمنة القضية التى تلح علينا إعلاميًا كل دقيقة تحول ما يجرى إلى أرقام مهما بذلنا من جهد نحو قضية نعتادها يوميًا، فلا يصبح للدم والقتل نفس التأثير الذى يحدث عندما نراه فجأة فى قضية أخرى، وتمنيت ساعة إدراكى هذا أن تكون صديقتى ورفيقة العمر الفنانة التشكيلية الفلسطينية لطيفة يوسف الراحلة هذا العام على قيد الحياة حتى يكون تصرفى معها أكثر فهما، أكثر تعاطفا، وربما أكثر مساعدة، كانت تنتمى إلى الجبهة الشعبية وكنت أرى حيرتها بين اتجاهها السياسى اليسارى وبين شباب عائلتها الذين يعيشون داخل فلسطين وينتمون إلى حماس وبين التناقضات مع فتح وحرصها الكبير على ألا تنقسم الفصائل الفلسطينية وأن تبقى متحدة، كنت أعرف مشاعرها حين يستشهد لها أخ شاب لكنى لم أعرف حقيقة الأمر مع كل هذه الفوضى التى قدمها المسلسل وسألت نفسى كيف سمحت لنفسى بكل هذا الجهل؟

اختلفت نظرتى للعمل مع المعلومات الجديدة وتكشفت بعض المشاهد المسمومة أمامى قررت أن أهتم أكثر بالحوار ومتابعة الصورة العامة وتحليل المشاهد خاصة بعد اتضاح تفاصيل حياة الشخصيات الفدائية فى علاقتهم بعائلاتهم واستعدادهم للتضحية بهم بدون أى شعور بالإنسانية أو الرحمة حتى نحو الأطفال.

بعد أن وصلت إلى نصف الجزء الأول من أربع مواسم أدركت أن كل هذا كان استدراجًا لكى يقدم الصراع بين الأمن الإسرائيلى والمقاومة الفلسطينية من وجهة نظر إسرائيلية بحتة، وأظن أن الحلقات القادمة ستكشف لى أكثر عن أهداف أخرى مصاغة باحترافية عالية جدا كتبت بعض الملاحظات الأولية ثم بحثت عن المعلومات عن العمل فوجدت أنه من إنتاج شركة يس ومن إخراج عوفرى جيعفون تأليف آفى يساخاروف، وهو صحافى مقربٌ من الأجهزة الأمنية الإسرائيلية، مع الممثل ليؤور راز بطل العمل الذى يلعب دور: دورون كافيلو (وهو من أصل عربى والده من العراق ووالدته من الجزائر)، وقد خدم كل منهما "راز وايسخاروف" فى واحدة من هذه الوحدات وشاركا فى عدد من العمليات ضد فلسطينيين ويلعبان دور البطولة أيضًا مع الممثلين: بواز كونفورتي: أفخاي، وورونا لى شيمون: نوريت، ودورون بن ديفيد: هرتزل بنتو، والممثلة لاتيتيا عيدو فى دور: الطبيبة شيرين العبد. وعلمت أن بعضا من الممثلين الفلسطينيين مشاركين فى العمل منهم: فراس نصار فى دور: نضال المقدسي، وشادى مرعي: وليد العبد، وهشام سليمان: توفيق حامد. رائده ادون: أم نضال زوجة الشيخ عواض، حنان هللو: العروس آمال، لوسى أيوب: مايا طوالبة، سمر قبطي: هيفاء حمدان، علاء دقة: بشار حمدان.

عرفت كذلك أن موسمه الأول كان فى ١٥ فبراير عام ٢٠١٥ وتم عرضه على منصة نت فليكس عام ٢٠١٦ ثم أضيف الموسم الثانى إلى نت فليكس فى مايو ٢٠١٨. عدد المواسم حتى الآن أربعة، عدد الحلقات ٤٨ مدة العرض كل حلقة ٤٥ دقيقة. وتشير المنصة أنه من أعمالها الأصلية وأن العمل مبنى على أحداث حقيقية، وأن سر عرضه على منصة نتفليكس بإلحاح الآن سببه أنها تعرض الموسم الرابع للمرة الأولى.

وتعجبت كيف يخدع الانسان نفسه وكيف ابتعدت عن المهنية وأنا أغفل بديهيات العمل الصحفى فى معرفة كل المعلومات أولا قبل أن أصل إلى أى نتائج، ثم توقفت عند تصريح "ليؤور راز": "نريد أن ندفع الناس لمشاهدة هذه القصة والحبكة التى نكتبها، نحن لا نسعى إلى تغيير العالم. بوسعنا السعى فقط إلى جعل الناس يتجهون إلى الحديث مع بعضهم البعض والسعى لفهم كل طرف للآخر بشكل أفضل".

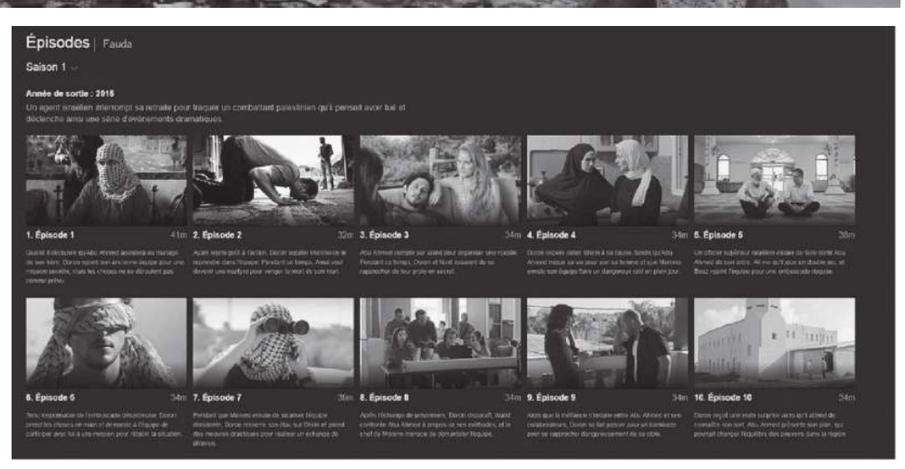

تتبعت أحداث العمل والصورة التى ينقلها لمعرفة أن كانت المقولة صحيحة أم تخفى وراءها ما تريد تمريره حتى أنهيت المواسم الأربعة.

الكيل بمكيالين

ركز الموسم الأول حول الصراع بين إسرائيل وحماس٢٠١٥، وتدور القصة حول عملية الفهد الذى يخطط لتفجير قنبلة غاز السارين وهو خمسمائة ضعف السيانيد أتى بها أبو خليل من عمان وسلمها إلى الفهد مع بعض الأموال بعد أن سرق بعضها، فى حين يتسلل دورون متنكرًا إلى خلية الفهد ليقوم لهم بعملية انتحارية ولا يوافق وزير الدفاع على هذه الخطة قائلا: لا أخاطر بالنظام بسبب فكرة مجنونة لكن أفراد الوحدة يتضامنون مع دورون سرًا.

وتنتهى بقتل الفهد والسيطرة على القنبلة بعد أن ضحى الفهد بالجميع بما فيهم ابنته والشيخ أبو نضال المؤسس لحماس.

فى الموسم الثانى دار الصراع بين المستعربين وحماس من ناحية وأحد المنشقين عنها ليعلن دخول داعش الأراضى المحتلة، وتستعرض الحلقات شخصية نضال المقدسى بفساد أخلاقه وتدميره للعائلة كلها بما فيهم أخيه المسالم وزوجته الحامل ووريث الفهد وليد العبد المختل نفسيًا الذى يجبر حتى عائلته على الانصياع لشهواته فى التدمير والقتل.

يكافح دورون ليوقف كل عمليات المقاومة وفى لقطة مع أبيه أثناء شراء قش لخيل مزرعته من العرب يتضح أنه كمين ينجوان منه بمعجزة وتعلن كتائب عز الدين القسام الجناح العسكرى لحركة حماس مسؤوليتها عن مقتل خمسة فى حاجز أورينت، فيجن جنونه وينجح نضال المقدسى فى قتل عاموس أبو دورون فيثور دورون، ويترك كل شيء فى حياته يسير فى خط الانتقام وحده. دون أن يسأل نفسه عن حق نضال فى الثأر لأبيه الشيخ عواض الذى قتل وإعلانه أنه سيطارد أسرة عواض كلها حتى يقضى عليها. وتكون النهاية كما فى الجزء الأول لصالح دورون البطل الهمام ومجموعته التى يمثل انتصارها الوهمى على المقاومة الفلسطينية تحقيق لنشوة بديلة فى الخيال وترسيخ لمشاعر طبيعية بالراحة أمام

قالت العرب

الأولى عيرونى أن أنا فلاح، بدفية / والتانية أزرع وأقلع اللى نام وارتاح، فى دهبية / والتالتة آه اللى أحبه شط منى وراح، فى صبحية

الشهدار
العدد 330 – السنة الثانية عشرة- الأحد 30 يوليو 2023 م- 12 محرّم 1445 هـ

«ذئاب الكومبيوتر»!

ما يجرى بالفعل فى أرض الواقع من قمع جميع العرب سواء فى قطاع غزة أو الضفة أو حتى عرب ٤٨.

فى الجزء الثالث تنتقل الأحداث إلى غزة وتتصاعد العمليات السرية لوحدة المستعربين فى المواجهة مع منظمات أخرى خاصة جماعة النخبة وتعتمد الحلقات على قصة خطف اثنين من شباب اليهود بغرض مبادلتهم بالأسرى الفلسطينيين داخل سجون إسرائيل ودخول المستعربين قطاع غزة لتحريرهم، وسط تشابكات كثيرة لعناصر المخابرات وتضارب أهدافها بين تحرير الرهينتين والقبض على أحد عناصر المقاومة فشلوا من قبل فى القبض عليه وضياع حياة شاب تسلل دورون إلى حياته البسيطة للقبض على عنصر آخر. يشعرك الجزء الثالث أن لكل مواطن فلسطينى ثلاث رجال مخابرات على الأقل يراقبون حياته وأفراد أسرته، ويشكك فى كل فرد من أفراد المقاومة وأهدافه وانتماءاته ومصداقية مشاعره ويرسم صورة غاية فى التناقض بين المواطن الفلسطينى والمواطن اليهودى ويكيل كل تصرف بمكيالين لكنه يرسم فى النهاية حياة الفلسطينيين كأقبح ما يكون حتى من وجهة نظر الإسرائيليين، دون أن ينسب هذا للاحتلال بالطبع حتى أن إحدى الصحفيات الإنجليزيات أشارت إلى القطاع المحاصر الذى أغلقته إسرائيل منذ أكثر من عقد من الزمان، والطريقة التى عاقبت بها أكثر من مليونى إنسان فيه بالموت البطيء.

تعجبت قليلا من حوار جاء على لسان دانا رئيسة الأمن فى غزة وهى تحقق مع شاب قتل بعض رجال الأمن فى بيوتهم قالت: يقول اليهود من عمل منكم عملا فليتقنه، على الرغم من صحة الحديث الذى جاء على لسان رسول الله "إن الله يأمركم إذا عمل أحد منكم عملا أن يتقنه" ولم يقتصر الأمر على سرقة أحاديث رسول الله، بل الرقص على شكل دبكة فلسطينية أحيانا والرقص على أنغام الموسيقى العربية خاصة أم كلثوم وترديد الغناء العربى فى أفراح الفرقة الخاصة التى تقتل العرب.

تدور أحداث الجزء الرابع عن علاقة إيران وحزب الله بالإرهاب وتصور بين أماكن متعددة داخل الأراضى المحتلة وتركز على مخيم جنين وتل أبيب والكيبوتس والشيخ مؤنس التى يسميها اليهود: رامام أبيب ثم يخرج من محليته إلى الخارج إلى بروكسيل فى بلجيكا وحدود سوريا والأردن حيث غور الأردن ومجدل فى شمال هضبة الجولان وبيروت وقرية فندقية شمال لبنان. أبطال الموسم تم تغيير بعضهم فحل أبو أسامة محل أبو ماهر فى قيادة الأمن الوقائى الفلسطينى وحل حزب الله محل حماس والنخبة وغيرها من الفصائل الفلسطينية وحتى داعش لهذا كان من الطبيعى الخروج إلى أوروبا ثم إلى بيروت لاحقا عبورا بسوريا عن طريق الجولان. تشارك الموساد بصورة مباشرة فى المهمات الخارجية ويتضح لنا حجم التعاون بين الموساد والعناصر الاستخباراتية فى العديد من البلاد الأوروبية وغيرها منها أثيوبيا على سبيل المثال بحجة تخليص العالم من الإرهاب الإسلامي.

على نفس نهج الإثارة الذى قدمه مسلسل فوضى من قبل عرفنا من البداية أن نتيجة العمليات فى غزة أدت إلى إبعاد دورون من الوحدة لأنه تسبب فى مقتل زميله أفخاى بعد أن رفض تنفيذ الأمر بالعودة واستمر فى مطاردة بشار الذى خطف الرهينتين. لا تتوقف ثورة دورون ضد زملائه خاصة جابى أو أيوب الرئيس الأكبر الذى يدعوه إلى السفر معه إلى بلجيكا ليشارك فى القبض على مجموعة من حزب الله تعمل من هناك، تمكن جابى من زرع عنصر فلسطينى داخلها هو عمر طوالبة ابن اياد طوالبة العميل الإسرائيلى من جنين الذى سلم تنظيم جهاد الإسلامى فى ٢٠٠٢ بما فى ذلك أخيه.

عمر أيضا هو ابن عم عادل طوالبة المسؤول عن حزب الله فى فلسطين. فى بروكسيل يلتقى جابى ودورون بالمسؤول الإسرائيلى ويتجهان إلى عمر الذى يخبرهم شكه فى أن رفاقه داخل الحزب تراودهم الظنون حوله ويطمئنه جابى فيستدرجه ويقبض عليه وتدور المعركة بين طرفين، الموساد والوحدة الإسرائيلية التى تذهب إلى بروكسيل من ناحية وحزب الله من ناحية أخرى ويموت جابى ويستغل الموساد الذى يقود المجموعة العلاقات العائلية فى عائلة طوالبة للوصول إلى عمر فى بيروت للوصول إلى جثمان جابى الذى يشك دورون فى موته أصلا ويقترح خطة انتحارية لاستعادته منها استغلال مايا أخت عمر. وبعيدا عن تفاصيل البطل الخارق القادر على اقتحام كل شيء رصدت عدة ملاحظات على المواسم الأربعة:

– صنع المسلسل عالمًا غامضًا على الحدود المسورة يعيش فيه عرب أشرار تبذل كل الجهود لكسر شوكتهم وابعادهم عن تعكير الحياة الآمنة لسكان المستعمرات الاسرائيلية وتحولت حياة الفلسطينيين ومقاومتهم للاحتلال الغاصب إلى مادة ثرية للإثارة عن مطاردة البطل دورون للمجرمين واصطيادهم وإثارة غريزة القنص لدى المشاهد ليجلس ساعة يوميا على الأقل مترقبًا كيف يتم الانتصار على الفلسطينى عدو دولة اليهود متجاهلا الغاصب المحتل سارق أرض الفلسطينيين، معطيًا شرعية وراحة نفسية له بعد أن داعب غرائزه كصياد فى البرارى المتوحشة.

لكن على الرغم من المجهود الفنى الجبار والميزانية الضخمة إلا أن المسلسل لم يستطع إغفال الحياة شديدة القسوة غير الإنسانية التى يعيشها الفلسطينى سواء فى غزة أو فى الضفة، ولا حجم المعاناة التى يعانيها من إهدار آدميته على يد الجنود الإسرائيليين بكل تنوعاتهم المهنية، وضاعت المشاهد التى تكلفت الملايين لإظهار الفلسطينى الإرهابى المتوحش الذى يهاجم اليهودى المسالم بلا ذنب اقترفته يداه أو صنعته حكومة الاحتلال أمام حقائق دامغة تهين الإنسانية كلها حين تحقر من آدمية الفلسطينى وحقه فى حياة كريمة فى وطنه. ولن أتعجب مطلقًا إذا جاء يوم تعترف فيه إسرائيل بما اقترفته وتسمى الفلسطينيين المواطنين الأوائل كما يفعل الأمريكيون الآن مع الهنود الحمر دون أن تهتز لهم شعرة بعد القضاء على شعب بأكمله، ولكن لن يضيع حق وراءه مطالب.

– تتصاعد على مدى الحلقات نظرة التعالى على العرب وتهميشهم داخل المجتمع إلى الحد الذى يتم فيه انكار قدراتهم حتى فى المعارك التى تنتهى بتراجع إسرائيل أو اكتساب العرب لمهارات ما داخل الجامعة أو وجود مناضلين يتنكرون فى صورة يهود ويتقنون العبرية ويعتبر رجال المخابرات الإسرائيليين هذه الخطوة كارثة قومية لم يتوقعوها أبدًا وينقلون على لسان العرب الترهيب من إسرائيل: هذه إسرائيل يا خيي. يقولونها برعب كأنها المستحيل. ومع تصوير حياة الفلسطينيين الشخصية وعلاقاتهم العائلية فإن هذا لا يكفى ليقيم حياة على قدم المساواة، حتى لو ظهرت مشاهدًا تدين الإسرائيليين "مثل مشهد سرقة الجنود لمستلزمات جهاز أخت نضال أثناء تفتيش البيت ونعت أمه لهم باللصوص" لأنها تنتصب وحيدة ضمن طوفان من المشاهد النقيضة لها. ويكفى أن العمل يدين كل الفدائيين ويبذر الفرقة بين الفصائل الفلسطينية بتخوين الجميع ولم يظهر نموذجًا واحدًا لفلسطينى متوازن باستثناء أبو بشار المناضل الذى يسمى أبو الأسرى وأبو ماهر رئيس الأمن الوقائى الفلسطينى الذى يقدمه من ناحية ثانية كعميل لإسرائيل ويصم كل رجال السلطة بالعمالة والخيانة بما فيهم أبو سمارة رئيس حماس وكل فدائى فلسطيني.

– ومع كل المحاولات الإعلامية لتصوير المسلسل باعتباره محايدا يبحث عن نقطة للحوار فإن معظم ما جاء من أحداث ومشاهد صب فى عكس هذا الاتجاه بافتراض أن مقاومة الاحتلال والظلم هو إرهاب وقد وجدت مقالا للصحفى الفلسطينى معد فياض ينقل فيه ما جاء على لسان مؤلف فوضى آفى ايسخاروف وهو صحفى إسرائيلى ومحلل سياسى يقول فيه: "حل الدولتين انتهى لأنه لا يوجد شركاء سلام، لا يوجد شريك إسرائيلى ولا يوجد شريك فلسطينى أما حل الدولة الواحدة فهو بعيد عن التحقق". ويعلق معد فياض على هذا الكلام قائلا: إن حكومات يمينية تسيطر على الدولة مثل حكومة نتانياهو لا يمكن لها أن تعطى "حقوقًا مدنية أو سياسية للفلسطينيين فى الضفة، مما يضع الأمور رهنا للرعب القادم من الاحتمالات المفتوحة، طبعا فى غياب شركاء السلام".

– ينتهى الموسم الرابع بسقوط عناصر وحدة المستعربين جرحى وهم يقرأون الفاتحة وبعض من كلمات التوراة: يا إسرائيل الإله واحد ثم يقرأ فقرة من التوراة فهل انتهى العمل عند هذه اللقطة الملغزة؟ لا أظن، أولا لأن قماشة المسلسل تسمح كل يوم بقصة جديدة عن هذا الصراع وطبعًا ينتهى بقتل العربى وانتصار دورون، وثانيا انتهى كل جزء من الأجزاء السابقة بخروج دورون من وحدة المستعربين ثم عودته لأسباب حتمية فى جزء جديد. ثالثا لقطة النهاية لا تعنى أن العرب والإسرائيليين واحد رغم أن الله واحد وقد بذلوا مجهودًا كبيرًا لإثبات أن قتل العربى يماثل قتل دمية فى ألعاب الكومبيوتر المعروضة بإفراط على الشبكة الدولية.

– يطرح المسلسل قضايا كثيرة منها اشتراك ممثلين عربًا فى التمثيل وددت أن أسألهم لماذا؟ وهل صدقوا بالفعل أن الإسرائيليين سيدفعون الملايين لإنتاج مسلسل ينصف القضية العربية؟ ألم يقفوا طويلا أمام احتفاء الرئيس الإسرائيلى بالعمل وتكريم العديد من الهيئات للمسلسل لأنه ينصف صورة إسرائيل! وهل ستعطى إسرائيل سبعة عشرة جائزة لمسلسل تتساوى فيه القضايا العربية مع الإسرائيلية؟

– يثير عندى مسلسل فوضى أيضا قضية التكوينات الاجتماعية الجديدة للفلسطينيين فى الداخل والخارج وتأثير الشتات على حياتهم وأفكارهم واستمرار قضيتهم هل يأتى يوم يذوبون فى بلاد الشتات بالفعل أم أن المستقبل يطرح إمكانيات جديدة تعيد الحق لأصحابه؟

– عشرات الصور الملحة أثارها المسلسل فى رأسى بكل وعيى بالقضية، فماذا يفعل الانسان البسيط أمام الآلة الإعلامية الجهنمية؟ لم تعد الحرب بالنار وحدها، ولكن بوسائل كثيرة أكثر تدميرًا. ماذا نحن فاعلون ألم يأت الأوان لعمل شركة انتاج كبيرة تقدم أعمالا فنية رفيعة المستوى وترد على مثل هذه الادعاءات؟ خاصة أن المسلسل يعلن عن اعتماده على وقائع حقيقية فكيف نترك تاريخنا يكتب بيد غيرنا كما يحدث مع المهزومين ونحن لم نهزم بعد، وحتى لا ننتهى إلى هزيمة لابد أن يؤدى كل منا دوره على الأقل فى فضح مثل هذه الأعمال التى كالت بمكيالين بين الفلسطينى والإسرائيلى ، والتى تبرر وجود القوة القاهرة وسحق الفلسطينى على أرضه باعتباره ليس بشرًا.

لن تتوقف اسرائيل عن استخدام كل القوى المدمرة والناعمة لإقناع العالم بأحقيتها المزيفة فى الأرض ولن نتوقف نحن فى الدفاع عن أرضنا فى فلسطين.

قراءة وتحليل: هالة البدري

رغاريد تطلق وهج الحياة في مواجهة الموت

قراءة في المجموعة القصصية زغرودة تليق بجنازة (مئة حكاية) للقاص الموهوب أحمد إبراهيم الشريف

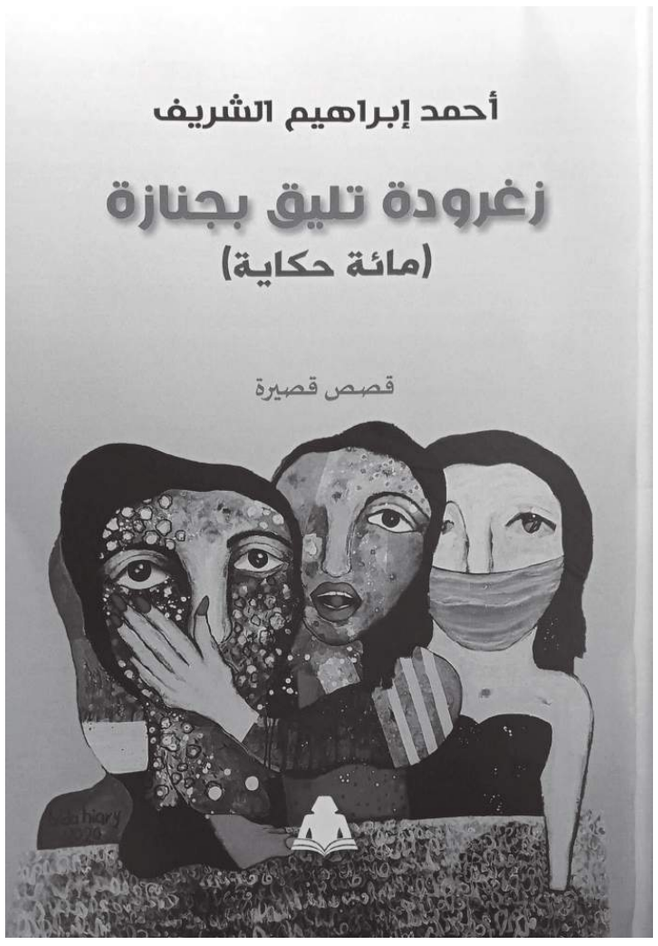

أدركت من زمن بعيد أن الفلاح المصري يتعامل مع الموت بمحبة وخفة، يصاحبه ويحكي عنه بحنين ويعاتبه بعنف المحب الذي يعرف أنه سيتصالح معه بعد قليل ثم يسخر منه ليدرأ الألم، يستقبله متوقعا ويستعيد الحكايات عنه في أوقات السهر والخوف، ويحيط نفسه بطقوس كثيرة كي يتحاشاه لكنه أبدا لا ينفيه.

لم أعرف أبدًا الراحة التي يمتلكها الإنسان البسيط بالفطرة تجاه الموت، كما لم يعرفها أصدقائي المثقفون الذين يتعبون أرواحهم بأسئلة الوجود الشائكة وبسؤال الموت نفسه، المحكومون بأزمة عدم اختيارهم الميلاد لكي يداهمهم الموت، فيتعاملون معه بحزن دفين يجرجرونه وراءهم طوال العمر، في حين يزرع الفلاح النبتة ويخلعها بعد أن تنضج ويفرح بإزالة آثارها لكي يعد الأرض لنبتة جديدة.

تذكرت هذا وأنا أقرأ المجموعة القصصية «زغرودة تليق بجنازة» (مئة حكاية)، للقاص الموهوب جدا أحمد إبراهيم الشريف التي احتل فيها الموت بطولة مباغتة وأحيانا متعايشة مع صاحبه، يروح ويأتي ليستأذنه في العودة به والكل يراقب راضيًا.

يتعايش الأطفال في هذه المجموعة مع عفريت الموت وملاكه كوجود حتمي في الحياة صباحًا ومساءً، لا يقفون طويلا أمام قصص الاختفاء التي تنتهي بجنازة أو بزغرودة مصاحبة لمرور نعش الميت أمام بيت إحداهن ليحقق المثل المصري الشهير «النعش الوراني يشمت في النعش الأدماني»، فالكل ميت لكن القصة تباغتنا بأن الزغرودة خرجت لأن المرأة تمنت أن يُرحم المريض من الألم وألا تظهر عليه شمس أخرى وهو في هذه الحالة.

لا تدفعنا القصص إلى الحزن بقدر ما تدفعنا إلى التأمل وأيضا لنكون جزءًا من المشهد السريع جدا، المقتضب المختصر اللغة الواخزة للقلب المتلاعبة بالروح، لنصبح أحد أبطاله ونشارك الراوي ذكرى هذه اللحظة القابضة على الرحيل بأشكاله المختلفة. تجعلنا ندرك أن كل لحظة في حياتنا ثمينة وأن اللحظات العابرة التي لم نتوقف أمامها كثيرا هي قصة أيضا استطاع المؤلف بمهارة التقاطها والتعبير عنها ودفعنا لإدراك امكانات تحليلها لتلخص فلسفة الإنسان في الحياة، والأهم أنه أعاد للقصة القصيرة بهجتها وبهاءها، وحدتها الجارحة التي تشق الحدث لتظهر جوهره النابض بالحياة المغلف بتراب اللامبالاة، هكذا قدم لنا شخصياته الموجودة أمامنا بإفراط والتي نعبرها بجبروت وتكبر.

سمعنا صوت الأم وهي تبلل المفتاح بلعابها ثم تضعه في قلب القفل لتعرف مكان الصورة التي التقطها ابنها الشاب منذ عشرين عاما، لمست ملامحه بيدها، ثم أعادت الصورة، واستعدت لزيارة قبره، ورأينا عجوزًا تلقن ابنها الشهادة وهو يردد خلفها بصوته الواهن وعينين زائغتين تحاول أن تحيطه بكفيها المهتزتين من البكاء. وسمعنا صوت الآخذ بالثأر الذي لم يبق له أحدًا لكي يخبره أنه فاز بثأره لكنه يفر إلى الضحية ليؤنسه.

العلاقة مع ملاك الموت علاقة واضحة فيها صراع وقدرة على التعامل معه وإدراك مكامن النفوذ تجعلهم يتركون له صيدا واحدا ثم يطاردونه بعدها بالحجارة والعصي الغليظة.

ليس الموت وحدة من يأخذ الناس بعيدا حسب الكاتب: السفر والابتعاد عن الأهل في منزلة موازية له؛ «قالت الزوجة لزوجها المسافر سأنام سنتين في انتظارك فألقى نظرة طويلة ناحية جواز سفره والحقيبة وتمنى لو اختفيا للأبد»، وأيضا اختفاء أسرة من ثمانية أفراد ركبوا القطار دون إعلام أحد.

تقدم المجموعة خريطة للعادات والتقاليد الاجتماعية حول الموت في مجتمع القرية منها الاهتمام بمشاعر الآخرين أثناء إقامة الأفراح، يقول الأب: يوم موت أم محمد سعد سأقيم فرحًا.

صراع الإخوة على الميراث والسخرية منه: في الليلة الثالثة والسبعين على رحيل الأب تمددت البندقية ونزلت عليها الفأس الحادة مرة وثانية وثالثة بينهم بحثا عن قسمة العدل.

عادات إجبار العروس على الزواج دون موافقتها أو انتهاكها بقسوة تؤدي إلى الموت أو إلى جرح لا يندمل: صوت بكائها يرتفع وهي تحاول أن تكتمه بعد انتهاء علبة السجائر الأولى اقتحمت الباب متخبطة في دمها ولم تستبدل فستانها بعد. ماذا يمثل الباب هنا؟

وفي قصته «جثة تطلب الدفن» قدم شكلا جديدا لهذه العادة التي تم الكتابة عنها في العديد من القصص القصيرة وبعض مشاهد من روايات تدور في الريف عن الغريق طالب الدفن، لكنه هذه المرة قدمه مؤكدا على رغبته ليس بالنداء عليه فحسب وإنما في حركة الدكة الخشبية التي يستقر عليها الجسد بعد الخروج من الماء. (كتبت في روايتي «منتهى» نفس النداء «يا طالب الدفنة» لتحكم إيقاعا مشهديا والأطفال يتلاعبون بالجثمان بين البرين، لهذا سألت المؤلف عن اسم قريته لأن العادات تماثلت بين الدلتا والصعيد)

الموت أيضا يوصد باب الأمل، كما في قصته «فرحة حزينة» التي انتهت بموت الأم وهي تستعد لاستقبال ابنيها الذين طال غيابهما، وأيضا بقص شعر حمدية الجميلة التي رحل زوجها فأمسكت في يدها مقصا قديما تزيل به ما طال بعض الشيء من شعرها القصير ثم تجمع شعرها المقصوص وتضعه في جلباب زوجها الراحل محمود. وبهية التي أنجبت سبعة ولم ير أحد ما بين ساقيها وحين تعسرت في الولادة فضلت الموت على الفضيحة كما تتراءى لها بالمساعدة الطبية.

تعج القصص بالمعتقدات التي يتحايل بها الناس على الموت وعلى الفجيعة وعلى الظلم: ظلت روح سليم الغضبان معلقة في انتظار أن يعود ابنه، وسؤال أبو محمد للزوجة: أخذ وديعته هل نعترض؟ لم يكن السؤال إلى الله كما يتبادر إلى الذهن للوهلة الأولى لكنه سؤال في المطلق يشرح كل الظلم الذي يمر على العامل بدون تأمين وبدون حماية وبدون مراعاة لقيمة الحياة، وبين تغير رأي الفلاحين حسب المصلحة كما في قصة «سلمى يا سلامة» عاد الجمع الذاهب إلى الفرح بعروس أخرى بديلا للعروس التي رفضت الزواج من العريس. واستماتهم في الدفاع عن أفكارهم مثل مقولة نحن فقراء ولنا الجنة في قصة «الذاهبون إلى الجنة» والجدل الطويل الذي يؤدي إلى طرد الراكب من قبل الجماعة في الميكروباص لأنه اعترض وقال لا جنة للفقراء من يحمل طينا في الدنيا يحمله في الآخرة، مس الكاتب بنعومة مواقف العامة من المثقفين أصحاب الوعي الأعلى.

مجموعة «زغرودة في جنازة» هي لوحة ساخرة للحياة والموت؛ لا يأتي الموت إلا إذا كانت الحياة مفعمة بالمشاعر والأحداث. توقفت أمام قصة «منتصر» التي يطارد فيها الأطفال الكلاب الضالة الغريبة التي تهاجم البيوت حتى شرح منتصر خطته في قتلها فانزعج الأطفال واستجابوا لفطرتهم السليمة في الرحمة وراحوا يركضون ويصيحون على الكلاب أمامهم أهربوا من منتصر.

في غواية الماء تستحم سماح بعد سفر زوجها في النهر وترفع ثيابها بعض الشيء حتى لا تبتل: مشهد بصري كلاسيكي للحرمان واشتهاء رجفة الماء ورغبة تتسرب ببطء للمراقب ليشاركها لحظتها. آلا تمثل رعشة النشوة بداية الحياة؟ البديل الذي قدمته الآلهة لآدم في الأساطير تعويضًا عن خسارته للأبدية بعد طرده من الجنة؟

وتتوالى ضربات الفرشاة في اللوحة: سخرية مريرة عن شيخ جامع طردته زوجته للمرة العشرين من جنة البيت، وولد يطالبه المعلم بمغادرة الفصل دون أن يفصح عن السبب لكن الطفل يدرك أنه موت الأب وهو يتساءل عن ارتداء الشال الأسود. أم تصر على فتح شباك بحري يطل على المقابر وهي لا تعلم أن هذا الشباك سيكون نافذتها على مقبرة ابنها. في قصة جرو لا ذكر للموت، ولكن شغف بحيوان صغير يحمله العائد من السفر ويحنو عليه، القبور كلها طينية سوداء وقبر عزيزة الوحيد المختلف المطلي بألوان زاهية لأنها عاشت كما أرادت، يتهمها الناس فلا تهتم ويوم موتها لم يخرج خلفها سوى المضطر دفنوها سريعا وعادوا. هل خافوا من الحياة المفعمة بالرغبة أم من أن يكشفهم الموت فيعاقبهم على الحياة؟ وتردد الراوي في الانحياز للرأي الذي يساوي بين ما يحدث للمرء في حياته وبعد مماته في أكثر من أقصوصة.

مرادفات كثيرة للموت منها العقم الامتداد الناقص، يعيش الزوج على أمل ميلاد الولد الذي يتصوره جنينًا لسنوات في بطن زوجته ويحمسه على الظهور قائلا: آكلني الزمن، أخرج أريد أن أتوكأ عليك، نهب الناس عمري وتركوني على طريق الموت، فتربت امرأته بيدها المرتعشة على يده النافرة العروق وهي بين الصحو والنوم وتخبره بأنها شعرت بالطفل يتحرك في أحشائها.

الغربة مرادف آخر: لا أحد يسأل الغريب من أنت؟ يتذكر الراوي منذ أربعين سنة حين خرجت القرية جميعها تودعه وتسأله العودة كان يقبض في يده القوية على حقيبة خفيفة ويكتم هجرته.

أما عفاريت الموتى فمتناثرة منها: عفريت سلاموني الذي أوقف شعر القطط وهي تفر مذعورة والعفريتان حيث تدور الساقية بالبقرة المغماة في حين يتحرك شبحان صغيران لطفلين ويكتشف الراوي بعفوية وعيه أنهما عفريتان بسبب شربهما للعصير كله. وشعور الهام بدخول شبح حين تفتح الشباك فتخشى مما سيفعله وينتهي الأمر برحيل ابنها.

وظف الكاتب المسكوت عنه والأساطير المصرية حول الموت باستخدام الرمز في لوحات بارعة مصفاة من الزيادات تتركنا غير مشبعين لكنه علمنا درسًا يستحق التأمل في كتابة القصة القصيرة بلغتها المقتصدة وقلبها الجارح.

بقلم: هالة البدري